نظرات في خصائص الخطاب القرآني

أ.رابح أمينة
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الاسلامية
جامعة وهران

مقدمة :

لقد أيد الله سبحانه وتعالى رسله بالرسالات و الكتب السماوية ، و من تلك الكتب القرآن الكريم الرسالة الخالدة إلى يوم الدين ، هذا الكتاب الذي أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،اختص الله بحفظه و إليه يعود مصدر ترتيبه ،ومن هنا كان لنظم القران خصائص كانت محل نظر العلماء منذ القدم في هذا المقال نحاول إبراز بعض خصائص الخطاب القرآني ، ولكن قبل الشروع في المقصود وجب التقديم لذلك بضبط مصطلح المعجزة والإعجاز لكون هذا الكتاب معجز ، ومن أثار الإعجاز مراعاة أحوال المكلفين زمن التشريع ، و تسوير الآي القرآني ،وتميز المفردة القرآني بموضعها .....و كلها محل دراستنا

1- توطئة لضبط مصطلحي المعجزة و الإعجاز :

القرآن الكريم رسالة الله الخالدة ، والمعجزة البينة التي سقطت أمامها حجج الناكرين والمعاندين ، على مر العصور والأزمان .و إعجاز هذه الرسالة دليل قاطع "أن القرآن كلام الله ومن عنده ،و دليل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ....هذه الحقيقة لا خلاف عليها لدى المؤمنين الموحدين ، و إنما الخلاف في الوجه أو الوجوه التي كان منها الإعجاز "[1]

فالمعجزة في اللغة اسم فاعل من الإعجاز ، والإعجاز مصدر للفعل (أعجز)[2]

والعجز و هو التأخر و القصور والضعف [3] و يقول صاحب اللسان " ومعنى الإعْجاز الفَوْتُ والسَّبْقُ، يقال: أَعْجَزَنِي فلان أَي فاتني؛ ومنه قول الأَعشى: فَذاكَ ولم يُعْجِزْ من الموتِ رَبَّه، ولكن أَتاه الموتُ لا يَتَأَبَّقُ ، وقال الليث: أَعْجَزَنِي فلان إِذا عَجَزْتُ عن طلبه وإِدراكه."[4]

إذن هي سبق وقوة وتقدم في مقابل المتأخر و الضعيف الذي لم يستطع الإدراك.

ومن ناحية الوضع الشرعي نجد أنه من المصطلحات المحدثة حيث أن القرآن الكريم لم يرد فيه هذا اللفظ بل وردت ألفاظ أخرى مقاربة له كمصطلح الآية والبرهان.

قال تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء 59]

و قال تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ [العنكبوت 51/50.]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و الحقيقة أن هذه الألفاظ ليست مرادفة لمعنى المعجزة أو الإعجاز بل تدل "على جزء من معناها الذي يشمل أكثر من معنى جزئي واحد،وهذا الجزء يقابل كلمة الدليل أو الحجة"5

في حين أن أول استعمال للمصطلح" فيما نعلم هو كتاب محمد بن يزيد الواسطي ، ومن الواضح أنه أُلِّف في أواخر القرن الثالث من الهجرة أو في مطلع القرن الرابع ، وقد وردت فيه كلمة معجزة ، ثم أخذت كلمات : آية وبرهان وسلطان ، تقل بعد ذلك في الاستعمال وتحل محلها كلمة معجزة في بحث مسألة النبوة وقضية الإعجاز . من أصعب الأمور الآن أن نبين الأطوار والمراحل التي مرت بها كلمتا معجزة وإعجاز "[6].

عرف **مصطلح المعجزة السيوطي** فقال : " اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة "[7].

و هذا التعريف منتقد لأنه يفتقر لذكر الأركان والشروط، حيث أنه لم يبين من هو المختص بالمعجزة، ولم يذكر شرط موافقتها لدعواه حتى يتحقق صدق المدعي للنبوّة أو كذبه "8.

عرفها من المعاصرين فضل عباس قال:" هي أمر خارق للعادة يدل على تصديق الله تعالى للمدعي في الرسالة ، أو هي تأييد الله تعالى مدعي النبوة بما يؤيد دعواه إلى المرسل إليهم "9.

و **أجمع التعاريف** تعريف عبد السلام اللوح10.

الذي يقول فيه :"أمر خارق للعادة والمألوف من الفعل أو الترك يجريه الله على يد نبي أو رسول على وفق مراده ؛ ليبرهن على صدقه مقروناً بالتحدي مع عدم المعارضة وذلك في زمن التكليف "11.

أما إعجاز القرآن فهناك من عرفه بقوله :"عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن و قصورهم عن الإتيان بمثله ، رغم ...قيام الداعي على ذلك و هو استمرار تحديهم و تقرير عجزهم "12.

فالإعجاز هو مصدر قرن بالقرآن و إضافته إلى القرآن "من إضافة المصدر لفاعله فكأن التقدير أعجز القرآن الناس أن يأتوا بمثله ، ومعنى ذلك أن هذا القرآن دل بما فيه من بيان على أنه من عند الله ، وثبت عجز الناس عن يأتوا بمثله "[13].

فاتصاف القرآن بالإعجاز يعني أنه"أمر خارق للعادة،مقرون بالتحدي،سالم من المعارضة ."14

2– من خصائص الخطاب القرآني مراعاة أحوال المكلفين :

من حكم الباري عز وجل أنه راعى أحوال المخاطبين ،فكان يؤيد رسله بمعجزات تتناسب وحال أقوامهم ، وتقاربها من حيث الظاهر .

فكانت معجزات الأنبياء الذين عاشوا في بلاد العرب الصحراوية موافقة لبيئتهم فمعجزة صالح كانت الناقة الغريبة بين أهل النوق ....،ولما كان سيدنا موسى ممن عاشر قوما تأثروا بالسحر أيده الله بمعجزة مادية توافق ميولهم .

قال تعالى : ﴿ **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾ **[النمل 12]**

قال تعالى : ﴿ **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** ﴾ **[الشعراء 32]**.فكانت معجزاته لا تخالف واقعهم القائم على تداول السحر و لكنها ليست بسحر ، و أهل الدراية منهم يميزون بين السحر وغيره و بين ما هو بشري و ما هو أكبر من طاقة البشر ، لذا كانوا أول من آمن بموسى عليه السلام .15.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و بعث سيدنا عيسى و قد انتشر بين بني إسرائيل العلم المادي ، حيث ابتعدوا عن شريعة موسى ، فجاءت معجزة عيسى عليه السلام تقويضا للمادة قال الله تعالى : ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[آل عمران 49] ،فسيدنا عيسى كان يعالج المرضى معالجة إعجازية، و قد كان الأطباء يعجزون عن ذلك .16

إن المعجزات السابقة للقرآن معجزات مادية تنتهي بوفاة صاحبها ، بل ربما تنتهي في حياته ، أما معجزة النبي صلى الله عليه وسلم فقد كانت مخالفة لما سبق ، معجزة عقلية ، غير محددة بزمان ، بل هي باقية بقاء الإنسان على الأرض.17

فالقرآن إذن جاء في قوم هم فرسان البيان ،و أهل الفصاحة و البلاغة و اللسان ،و هو كتاب " تام الهداية ، لا تقتصر على مجال دون مجال ، أو مكان دون مكان أو شعب دون شعب ."18

لقد تحداهم في بداية الأمر بقوله تعالى : ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾ [الطور34] .ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور فقال تعالى : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ **[هود 13]** .

ولما عجزوا عن ذلك تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة ، قال تعالى : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ **[يونس 38]**.

وفي آخر المراحل طالبهم بأن يأتوا بسورة تشبهه فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ** ﴾ **[البقرة 23]** .

إن القرآن الكريم تحدى العرب "أن يأتوا بسورة من مثله ويشمل هذا التحدي قصار السور كما يشمل طوالها ، فهو تحداهم بسورة الكوثر و الإخلاص و المعوذتين و النصر و لإيلاف قريش أو أية سورة يختارونها .."19.

اختلفت الأنظار في تحديد أوجه إعجاز القرآن ، فمنهم من رأى أنه معجز ببيانه ،و اعتبر أعظم وجوه الإعجاز لكونه ينتظم ، ومنهم من رأى أنه معجز من أكثر من وجه ، وهو المختار عند العلماء ، فالقرآن "معجز بكل ما تتسع له كلمة الإعجاز ، وبكل ما يشتمل عليه القرآن من مجالات متعددة " وقد أوصل بعض العلماء أوجه الإعجاز إلى أكثر من ثلاثين نوع كالسيوطي مثلا ، رغم أن الكثير منها مكرر يستحق الدمج .20

نحاول فيما يلي بسط القول في بعض أوجه الإعجاز و خصائص التعبير القرآني المتعلقة بمقاصد السور القرآنية .فسنبحث في مسائل متعلقة بنظم السورة ووحدتها وبكل ما يخدم ذلك من إعجاز لفظي ومعنوي .

3- من خصائص القرآن الإعجاز في تسوير الآي :

لقد جاء القرآن الكريم بتقسيم بديع ،فسور الآيات وجمع بين الموضوعات المختلفة تحت مسمى واحد ، وفي هذا حكم جليلة اختلف العلماء في تحصيلها .وكونه سور متعددة حجة بالغة على أنه معجز ومن عند الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويربي المكلفين ويحقق مصالحهم ، "وهذه التربية لا تكون وارفة الظلال ،دانية القطوف ، قريبة الجنى ،كثيرة الثمرات ، لو لم يكن القرآن الكريم سورا متعددة "21.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فتسوير السور ينبهنا إلى كون أن كل سورة معجزة بذاتها سواء كانت من طوال السور أو من قصاره .
كما أن السورة الواحدة هي فن مستقل لها مزاياها و خصائصها وشخصيتها وموضوعاتها و هي لا تشبه غيرها من السور .
ومما نقل العلماء من حكم التسوير جمع النظير إلى النظير وضم المتشابه من المعاني و في ذلك يقول الزمخشري :"أن التفصيل يسبب تلاحق الأشكال و النظائر و ملائمة بعضها لبعض ، وبذلك تتلاحظ المعاني و النظم "22
فللقارئ عادة ما ينشط لزيادة القراءة والتدبر كلما أتم سورة ، من أجل تحصيل معان أوفر و أكثر من خلال السور التالية .23.
لقد أشار الرازي لأهمية نظم الآيات وترتيبها في السورة الواحدة فقال :"ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة – أي سورة البقرة – وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا أنه معجز بسبب نظم أسلوبه أرادوا ذلك ، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف ، غير منبهين لهذه الأسرار ، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل : والنجم تستصغر الأبصار رؤيته و الذنب للطرف لا للنجم في صغر" 24.

آثار تسوير الآي القرآني :

أ – من آثار تسوير الآي تجد توزع الأحكام المختلفة عبر جميع السور: فلا تجد مثلا سورة خاصة بالعقيدة و أخرى خاصة بالمعاملات و أخرى خاصة بالعبادات بل أحكام التشريع تمتاز بأحكام الأخلاق و بأحكام العقائد .
و في ذلك مقاصد عالية وهي التذكير دائما بالمقصد الكلي للقرآن ، وهو تحقيق الهداية دائما ، فتجد"حينما يشرح لك أحكاما في العبادات أو المعاملات أو غيرها ، يسلك أيضا المنهج ذاته ، فهو يحاذر أن تستغرق في التأمل بهذه الأحكام من حيث هي علم أو فن برأسه ....."
فالقرآن حينما يمزج بين الأحكام في السور المختلفة إنما يهدف بذلك إلى مراعاة مقصدين: الأول قريب و هو جمع المعاني المشتركة التي تكون السورة الواحدة و المقصود الكلي الواحد .
و الثاني فيه تذكير بالمقصود الكلي للقرآن و الذي " يدور جميعه على معنى كلي واحد هو دعوة الناس إلى أن يكونوا عبيدا – لله تعالى –..."25
غير أن هناك من اعتبر أن المنهج القرآني في عرض الأحكام منهج غير منظم ،حيث أنهم حاكموا القرآن لكتبهم ومناهجهم المعاصرة في العرض والتقسيم .فيقول أحد المستشرقين المدعو ويلش :"معظم سور القرآن تبدو و كأنها مكونة من مقاطع أو أجزاء مختلفة ، متنافرة و غير مترابطة و لا يجمعها عنوان واحد و محدد و لا نسق موضوعي بعينه .....26'
ويقول آخر :"أما باقي السور الطويلة فهي تتناول مواضيع مختلفة تتحدث عنها مواضع مختلفة من السورة ، و كأن القرآن يعطي للقارئ انطباعا بأنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية.'27
"لقد حاولوا تعليل هذه القضية التي أقنعوا أنفسهم بها ، وهي عدم الترابط بين أجزاء السورة بعلل مختلفة ، فرجعها بعضهم إلى سذاجة الأسلوب و ركاكته ، ورجعها بعضهم لغرض مقصود وهو عدم الملالة و السآمة ، ورجعها آخرون إلى ركاكة في المعنى ،و آخرون حملوا ذلك الخطأ للصحابة رضوان الله عليهم ، بأنهم لم يحسنوا ترتيب الموضوعات في السورة الواحدة '28.
في الحقيقة نجد أن هؤلاء قاسوا كتابا مصدره الله بكتب مصدرها الإنسان ، ومن خصائص ربانية التشريع ، الوصول إلى المكلف من خلال مخاطبة عقله ووجدانه و لا يتم ذلك إلا من خلال المزج بين الأحكام المختلفة وبهذا تجد "الأوامر والنواهي لا تساق جافة مجردة عن معاني الترغيب والترهيب ، وإنما تورد محفوفة بأنواع من المعاني ، التي من شأنها أن تخلق في نفوس المخاطبين بها : الهيبة ، والمراقبة و الارتياح و الشعور بالفائدة العاجلة والآجلة ، يدعوهم كل هذا إلى المسارعة إليها ، وامتثال الأمر فيها ، نظرا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لمقتضى الإيمان ، و بداعية الرهبة و الرغبة . و هذا هو الوازع الديني الذي يسعى ا لإسلام لغرسه في نفوس المؤمنين ، لينقادوا إلى الحق ... "29.

فعرض القرآن للأحكام بتلك الطريقة هو تميز و إعجاز و استقلال "عن كل ما هو مألوف و معروف من طرائق البحث و التأليف ....و هناك شيء آخر هو أن من الخطأ في أصل النقد و البحث أن نحاكم القرآن في منهجه و أسلوبه إلى ما تواضع عليه الناس اليوم ..."30 .

ب –ومن آثار التسوير تميز السورة بخصائص معنوية رغم اشتراكها مع غيرها في معاني و أحكام متكررة أو ألفاظ متشابهه ، و مرد هذا الأمر إلى أغراض أساسية منها إنهاء حقائق الدين و معاني الوعد والوعيد إلى الناس عن طريق تكرارها في صور و أشكال مختلفة من التعبير و الأسلوب مع مراعاة سياق كل السورة ، وما يتلاءم معها و وحدتها الكلية .

ومن أغراضه كذلك التنويع في الأسلوب و التغير في القوالب اللفظية حتى يخرج المعنى في كل مرة بثوب جديد من أجل التأثير في المكلف حتى يتحقق الامتثال لأحكام الشرع و الالتزام بالتشريع ، وكل ذلك في إطار السورة التي تضمه ، لأن كل سورة "سيقت لغرض معين ، وموضوع عام تعالجه بمجموعها ،فتتعرض لحكم أو أكثر مما سبق ذكره في سورة متقدمة نظما ، ولكن تناوله في الموضع المتأخر هذا كان لغرض غير الذي ذكر من قبل ، فكل منهما تابع للمعنى العام للسورة "31 .

ج– ومن آثار التسوير تميز السورة بقصص قرآني يتلاءم و مقصودها ووحدتها الكلية ،

فتجد مثلا حديثا عن بني إسرائيل في سورة البقرة حيث جاء التذكير بالنعمة التي من بها الله عليهم ولم يشكروها ، لذلك جاء الحديث عنهم على شكل مقاطع و فقرات في التذكير بها ، قال تعالى : ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة40] . و خواتيم الحديث عن النعم جاء تذكير آخر بها ،قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة 47]. 32.

جاءت هذه الأحداث من حياة بني إسرائيل لتمتزج مع موضوع السورة ،و ما فيها من أحكام وتوجيهات وتشريعات تخص المجتمع المسلم، و تنظم علاقاته الداخلية و الخارجية أفرادا و جماعات . ومن خلال هذه الأحكام و هذه التشريعات تعرض السورة لأحداث ومقتطفات من حياة بني إسرائيل تتناسب و جو هذه الأحكام ، مثلا تعرض السورة لموضوع الجهاد و الأمر بالقتال في قوله تعالى :﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة 244] ،فتأتي السورة قبله بحديث عن بني إسرائيل دعاهم فيه نبيهم إلى القتال ففروا خشية الموت قال تعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة 243]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و تأتي بعده –أي بعد الأمر بالقتال –بحدث آخر أيضا عن حياة بني إسرائيل كله حديث عن القتال و ذلك في قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة 246] 33.

فعرض مشاهد القصص يكون وفق سياق السورة العام ، و يتلاءم مع الأغراض المرادة من تلك المشاهد ومن القصة عموما ، وحتى تكرار ذكرها لا يكون إلا خدمة لمقاصد قرآنية متنوعة .فالأصل في نصوص القرآن تكامل موضوعاتها على مستوى السورة أو على مستوى القرآن ككل فكل نص من النصوص الواردة حول موضوع واحد ، يشتمل على ما يملأ فراغ حبة في عقد الموضوع و في عقد السورة كذلك ، ويمتاز ببيان فكرة ، إذا انضمت مع سائر الأفكار أبانتها سائر النصوص في سياق السورة وفي سياق القرآني الكلي 34

د – من مظاهر التسوير تناسب اللفظ لموضعه والجمل لموضعها داخل السورة :

تتكون السورة القرآنية من آيات ، جمعت بينها معاني مشتركة ، و تلك الآيات ليست إلا كلمات جاءت لتخدم المعاني كذلك ، لقد بحث العلماء قديما وحديثا مظاهر الإعجاز و قد كان لنظم الكلمات و الجمل حيزا مهما من تلك الدراسات ، و نحاول الآن أن نذكر بعضا من تلك الخصائص التي تخدم مقاصد القرآن عموما ومقاصد السورة خصوصا .

4. – من خصائص الخطاب القرآني تميز المفردة القرآنية بموضعها :

إن الكلمة في جمل القرآن"بمنزلة الفريدة من حب العقد ، فلا يقع مثلها لمخلوق ، ولا يستطيع أحد الإتيان بمثلها ، ولا يكاد يقع ذو ذوق سليم ، وذهن مستقيم على شبهها " 35.لقد دعانا القرآن إلى الدقة في التعبير ، وحسن اختيار الألفاظ ، فلا يصح أن يقع لفظ مكان آخر ، و بذلك تضل المعاني بين الاحتمالات ، و تتوه الأغراض والمقاصد قي ضلال الشك قال الله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات 14] .

فقد نبه القرآن إلى ضرورة التعبير بالمصطلح الأدق الموصل لحقيقة الشيء ،فيأمرهم أن يقولوا أسلمنا بدلا من آمنا

و قد كانت كلمة راعنا من الكلمات التي تقولها اليهود و فيها تهكم و رعونة ،فقال تعالى :﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[النساء 46] ، فأمر القرآن المسلين بتركها و الابتعاد عنها ، واستبدالها بمرادف لها ، لا يملك السفهاء تغيره أو تحريفه ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ **[البقرة 104]36**.

من أثار دقة الموضع دقة معانيها ، فتجد الكلمة القرآنية تؤدي وظيفتها الدلالية بتميز بالغ يحير عقول البشر ،فالكلمة القرآنية تمتاز عن سائر مرادفاتها بتطابق المعنى المراد معها "فمهما استبدلت بها غيرها ، لم يسد مسدها و لم يغن غناءها ، ولم يؤد الصورة التي تؤديها " 37.ومن نتائج دقة الوضع حسن اتساق الكلمات داخل الجمل و الجمل ضمن سياق المقطع أو ضمن سياق السورة ككل "فالكلمة بما تستوعبه من معنى تتجاوب مع سائر الكلمات داخل العبارة ، فتتداعى المعاني بتسلسل منطقي" 38. فالآية هي اللبنة الأساسية المكونة للسورة ، بحيث تبرز صورة واضحة ، عن التماسك و البناء ،فهي بما تحويه من كلمات متراصة ، إذا انتظمت مع غيرها من الآيات في إطار السورة القرآنية ، تشكل وحدة كاملة المعالم ، فالآيات عبارة عن أجزاء تركيبية ، لا يكتمل مقصد السورة إلا بمراعاتها و اندراجها ضمن النظم القرآني ، مع غيرها من آي الذكر الحكيم ، و هذا لا ينفي كون بعض الآيات قد اجتمعت لتخدم مقاصدا جزئية في إطار السورة العامة.39

الهوامش :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1عبد السلام اللوح ،حوار مع الرماني في وجوه الإعجاز ،2

2 نعيم الحمصي ،فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر ، 7.

3الراغب الأصفهاني ، في غريب القرآن ت :محمد سيد كيلاني ،322.

4 ابن منظور ،لسان العرب ،مادة عجز.

5نعيم الحمصي ،فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية حتى عصر الحاضر ،7 .

6المرجع نفسه ،ص8 .

7السيوطي ،الإتقان في علوم القرآن ، 2/ 238.

8عبد السلام اللوح ،الإعجاز العلمي في القرآن ، 6.

9فضل عباس ، إتقان البرهان ، 108/1

10باحث فلسطيني،متخصص في علوم القرآن و التفسير ،أستاذ مشارك بجامعة غزة الإسلامية ، له الكثير من الآثار العلمية المتعلقة بالتفسير الموضوعي وعلوم القرآن ، ينظر الترجمة على الموقع الشخصي للشيخ ، /http://site.iugaza.edu.ps/ahamdan/cv

11عبد السلام اللوح ،المرجع السابق، 6 .

12صلاح عبد الفتاح الخالدي ،إعجاز القرآن البياني و دلائل مصدره الرباني ، ،17

13فضل عباس ، سناء عباس، إعجاز القرآن الكريم ، 28.

14نعيم الحمصي ، مرجع سابق ،7.

15مصطفى مسلم ،مباحث في إعجاز القرآن ، 35، ينظر فضل عباس ، إعجاز القرآن، 24

16صلاح عبد الفتاح الخالدي ،إعجاز القرآن البياني و دلائل مصدره الرباني ، 25

17فضل عباس ، المرجع السابق ،27.

18فضل عباس ، إتقان البرهان ،109/1.

19فاضل السامرائي ،التعبير الفني في القرآن ، 9.

20فضل عباس ، إعجاز القرآن ،136

21فضل عباس ، إتقان البرهان في علوم القرآن ،447/1.

22الزمخشري ،الكشاف ،98/1.

23السيوطي ، المصدر السابق ،231/1،ينظر فضل عباس ، المرجع السابق ، نور الدين العتر ، علوم القرآن ،40

24الرازي ، مفاتيح الغيب ،7 /138

25البوطي ، روائع القرآن ، 122.

26محمد أبو ليلة ، القرآن الكريم من المنظور الإستشراقي دراسة نقدية تحليلية ، 193 .

27فضل عباس ، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ، نقد مطاعن و رد شبهات ، 74 .

28المرجع نفسه ،87–79

29محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، ،488

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

30محمد شيخون ، الإعجاز في نظم القرآن ،.76

31إبراهيم الحامدي ،النظم القرآني و أثره في الأحكام ، 242

32لم يتم مراعاة الترتيب التاريخي في ذكر قصص الأنبياء.

33سليمان الدقور ،اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني،210–211

34حبنكة الميداني ، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ، ط:2، .70

35عبد الفتاح لاشين ، من أسرار التعبير القرآني ،15.

36المرجع نفسه ،.9

37البوطي ، روائع القرآن ،.145

38إبراهيم الحامدي ،مرجع سابق،79 .

39المرجع نفسه ،93-94

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com